"الرجل العظيم هو من يتحمل نتائج عمله"

- هلتر -

المشرد الذي أصبح من أبرز رجال التاريخ

أدولف هتلر (١٨٨٩ - ١٩٤٥):

قصة حياته هي قصة حياة الملايين الذين قاتلوا من أجله أو قاتلوا من قاتلوا من أجله

هتلر... من لم يسمع بهذا الاسم؟..... فهل أحتاج تعريفاً؟

سنواته الأولى:

بمغيب شمس الـ ٢٠ أبريل ١٨٨٩، وضعت كلارا هتلر وليدها أدولف الذي سيغير وجه الكرة الأرضية عندما يشتد عضده وذلك في برونو (النمسا)، وهي بلدة صغيرة على ضفة نهر الآن الذي يجري من ألمانيا. كان أبوه "لويس" موظف جمارك صغيراً. وكان لأدولف ٥ أشقاء وشقيقات، ولم تكتب الحياة من بين الستة إلا لأدولف وشقيقته "بولا". كان أدولف متعلقاً بوالدته وشديد الخلاف مع أبيه مع العلم أنه ذكر في كتابه "كفاحي" أنه كان يكن الاحترام لوالده الذي كان يعارض بشدة انخراط ولده أدولف في مدرسة الفنون الجميلة؛ إذ كان أبوه يتمنى على أدولف أن يصبح موظف قطاع عام مثله.

عاد أدولف هتلر في تشرين الأول ١٩٠٧ ليدخل امتحان القبول، وهو أولى الخطوات العملية لتحقيق أحلامه في فن الرسم، وكان في الثامنة عشرة، مفعماً بالآمال العراض. لكنها سحقت وتطايرت هباء؛ إذ إن خيبته كانت مريرة عندما لم يجد اسمه في عداد الناجحين، وعاود الكرة وكانت رسومه تافهة إلى حد لم تؤهله إلى المشاركة في الامتحانات هذه المرة. فكانت ضربة قاصمة لطموح فني كطموحه- كما ذكر فيما بعد؛ لأنه مقتنع تماما كما نوه في (كفاحي)، ولذلك طلب إيضاحاً من عميد الكلية: "أكد لي هذا السيد أن الرسوم التي عرضتها برهنت بما لا يقبل الشك أني لا أصلح لمزاولة فن الرسم، وأن كفاءتي كما أوضحت له الرسوم تكمن في الهندسة المعمارية، وقال لي لا شأن لك قط في أكاديمية الرسم وميدانك هو مدرسة الهندسة المعمارية". واضطر هتلر إلى الرضوخ لحكم الله. لكن ما إن أدرك وهو حزين أن فشله في نيل شهادة التخرج الثانوية سيحول بينه وبين دخوله مدرسة الهندسة المعمارية. لذا عاد إلى فيينّا بعد وفاة والدته والتحق بالمدرسة الثانوية لإكمال تحصيله فيها. إلا أنه صُدِم حين أدرك أن عليه العمل لكي يعيش، إلى جانب انكبابه على الدراسة والتحصيل.

يقول هتلر واصفاً تلك المرحلة من حياته:"وإني لأحمد اليوم العناية التي وضعتني وجهاً لوجه أمام قسوة القدر وأنا بعد طري العود، وجعلتني أذوق مرارة العوز بعد أن قذفت بي إلى عالم الجريمة، متيحة لي أنا -البرجوازي النشأة- أن أعايش الذين وجدتني فيما بعد مناضلاً في سبيلهم ومن أجل رفع مستواهم".

في فيينا، بدأ هتلر العمل كمعاون بناء ثم كدهان ليحصل على كفافه وليأمن غائلة الجوع. حيث ذكر هتلر في كتابه (كفاحي) متحدثاً عن الجوع:" هذا الرفيق الذي كان يأبى عني انفكاكاً ويشاطرني كل شيء، فإذا اشتريت كتاباً وقف الجوع

ببـابي يومـاً كـامـلاً، وإذا حـضـرت حـفلة موسيقية أو شاهدت مسرحية ما، لازمني الجوع يومين".

تمتع أدولف بالذكاء في صباه وقد تأثر كـثـيـراً بالمحـاضـرات التي كـان يلقـيـهـا البروفسور "ليبولد بوتش" والممجدة للقومية الألمانية.

- أودلف هتلر "رضيعاً" -

فيينا وميونخ:

في يناير ١٩٠٣ مـات أبوه ولحقته والدته في ديسمبـر ١٩٠٧. وغدا أدولف ابن الـ ١٨ ربيعـاً بلا معيل وقرر الرحيل إلى فيينا أملا أن يصبح رسـاماً. عكف على رسم المناظر الطبيعية والبيوت مقابل أجر يسير وكانت الحكومة تصرف له راتبـاً كونه صـغـيـر السن وبلا معـيل. وتم رفضـه من قبل مـدرسـة فـيـينا للفنون الجميلة مرتين وتوقفت إعانته المالية من الحكومة.

وفي فيينا، تأثر أدولف كثيراً بالفكر المعادي للسامية نتيجة وجود اليهود بكثرة في تلك المدينة وتنامي الحقد والكراهية لهم. وقد دوَّن أدولف في مذكّراته مقدار مقته وامتعاضه من الوجود اليهودي واليهود بشكل عام.

وفي عام ١٩٠٣، انتقل أدولف إلى مـدينة ميـونخ لتفـادي التجنيـد الإلزامي وكـان الرجل يتـوق للاسـتـقـرار في ألمانيـا عوضـاً عن الإقـامـة في الإمـبـراطورية المجرية النمساوية لعدم وجود أعراق متعددة كما هو الحال في الإمبراطورية النمسـاوية. وباندلاع الحـرب العـالميـة الأولى، تطوع الرجل في صـفـوف الجـيش البـافـاري وعـمل كسـاعي بـريد عـسكري بينمـا كـان الكل يتهـرب من هذه المهنة ويفـضّل الجنود البـقـاء في خنادقـهم بدلاً من التـعـرض لنيـران العـدو عند نقل

المراسلات العسكرية. وبالرغم من أداء أدولف المتميز والشجاع في العسكرية، إلا أنه لم يرتق المراتب العلا في الجيش. وخلال الحرب، كوّن هتلر إحساسا وطنيا عارماً تجاه ألمانيا رغم أوراقه الثبوتية النمساوية وصعق أيما صعقة عندما استسلم الجيش الألماني في الحرب العالمية الأولى لاعتقاد هتلر باستحالة هزيمة هذا الجيش وألقى باللائمة على الساسة المدنيين في تكبد الهزيمة.

- هتلر في الحرب العالمية الأولى "الأول جلوساً على يمين الصورة -

الحزب النازي:

بنهاية الحرب العالمية الأولى، استمر هتلر في الجيش والذي اقتصر عمله على قمع الثورات الاشتراكية في ألمانيا. وانظم الرجل إلى دورات معدّة من "إدارة التعليم والدعاية السياسية" هدفها إيجاد كبش الفداء لهزيمة ألمانيا في الحرب بالإضافة إلى سبب اندلاعها. وتمخّضت تلك الاجتماعات عن إلقاء اللائمة على اليهود والشيوعيين والسّاسة بشكل عام.

لم يحتج هتلر لأي سبب من الاقتناع بالسبب الأول لهزيمة الألمان في الحرب لكرهه لليهود وأصبح من النشطين للترويج لأسباب هزيمة الألمان في الحرب. ولمقدرة هتلر الكلامية، فقد تم اختياره للقيام بعملية الخطابة بين الجنود ومحاولة استمالتهم لرأيه الداعي لبغض اليهود. وفي سبتمبر ١٩١٩، التحق هتلر بحزب "العمال الألمان الوطني" وفي مذكرة كتبها لرئيسه في الحزب يقول فيها: "يجب أن نقضي على الحقوق المتاحة لليهود بصورة قانونية مما سيؤدّي إلى إزالتهم من حولنا بلا رجعة". وفي عام ١٩٢٠، تم تسريح هتلر من الجيش وتفرغ للعمل الحزبي بصورة تامّة إلى أن تزعم الحزب وغير اسمه إلى حزب "العمال الألمان الاشتراكي الوطني" أو "نازي" بصورة مختصرة. واتخذ الحزب الصليب المعقوف شعاراً له وتبنّى التحية الرومانية التي تتمثل في مد الذراع إلى الأمام.

- بطاقة عضوية حزب العمال الخاصة بهتلر -

الحزب الحاكم:

يتبوأ هتلر أعلى المراتب السياسية في ألمانيا بلا دعم شعبي عارم، عمل الرجل على كسب الود الشعبي الألماني من خلال وسائل الإعلام التي كانت تحت السيطرة المباشرة للحزب النازي الحاكم وخصوصاً الدكتور جوزيف غوبلز. فقد روّجت أجهزة غوبلز الإعلامية لهتلر على أنه المنقذ لألمانيا من الكساد الاقتصادي والحركات الشيوعية إضافة إلى الخطر اليهودي. ومن لم تنفع معه الوسائل "السلمية" في الإقناع بأهلية هتلر في قيادة هذه الأمة، فقد كان البوليس السري

"جيستابو" ومعسكرات الإبادة والتهجير القسري كفيلة بإقناعه. وبتنامي الأصوات المعارضة لأفكار هتلر السياسية، عمد هتلر إلى التصفيات السياسية للأصوات التي تخالفه الرأي، وأناط بهذه المهمة للملازم "هملر". وبموت رئيس الدولة "هيندينبيرغ" في ٢ أغسطس ١٩٣٤، دمج هتلر مهامّه السياسية كمستشار لألمانيا ورئيس للدولة، وتمت المصادقة عليه من برلمان جمهورية ويمر.

وندم اليهود أيما ندم لعدم مغادرتهم ألمانيا قبل ١٩٣٥ عندما صدر قانون يحرم أي يهودي ألماني حق المواطنة الألمانية عوضاً عن فصلهم من أعمالهم الحكومية ومحالّهم التجارية. وتحتّم على كل يهودي ارتداء نجمة صفراء على ملابسه وغادر ١٨٠,٠٠٠ يهودي ألمانيا جرّاء هذه الإجراءات.

وشهدت فترة حكم الحزب النازي لألمانيا انتعاشاً اقتصادياً مقطوع النظير، وانتعشت الصناعة الألمانية انتعاشاً لم يترك مواطناً ألمانيا بلا عمل. وتم تحديث السكك الحديدية والشوارع وعشرات الجسور مما جعل شعبية الزعيم النازي هتلر ترتفع الى السماء.

- الشعار الشخصي لهتلر -

وفي مارس ١٩٣٥، تنصّل هتلر من "معاهدة فيرساي" التي حسمت الحرب العالمية الأولى، وعمل على إحياء العمل بالتجنيد الإلزامي وكان يرمي إلى تشييد جيش قوي مسنود بطيران وبحرية يُعتد بها، وفي نفس الوقت، إيجاد فرص عمل للشبيبة الألمانية. وعاود هتلر خرق اتفاقية فيرساي مرة أخرى عندما احتل المنطقة المنزوعة السلاح "أرض الراين" ولم يتحرك الإنجليز ولا الفرنسيون تجاه

انتهاكات هتلر. ولعل الحرب الأهلية الإسبانية كانت المحك للآلة العسكرية الألمانية الحديثة عندما خرق هتلر اتفاقية فيرساي مراراً وتكراراً وقام بإرسال قوات ألمانية لإسبانيا لمناصرة "فرانسيسكو فرانكو" الثائر على الحكومة الإسبانية.

وفي ٢٥ أكتوبر ١٩٣٦، تحالف هتلر مع الزعيم الإيطالي الفاشي موسوليني واتسع التحالف ليشمل اليابان وهنغاريا ورومانيا وبلغاريا، بما يعرف بحلفاء المحور. وفي ٥ نوفمبر ١٩٣٧، عقد هتلر اجتماعاً سريّاً في مستشارية الرايخ وأفصح عن خطّته السرية في توسيع رقعة الأمة الألمانية الجغرافية. وقام هتلر بالضغط على النمسا للاتحاد معه، وسار في شوارع فيينا بعد الاتحاد كالطاووس مزهواً بالنصر. وعقب فيينا، عمل هتلر على تصعيد الأمور بصدد مقاطعة "ساديتلاند" التشيكية والتي كان أهلها ينطقون بالألمانية، ورضخ الإنجليز والفرنسيون لمطالبه لتجنب افتعال حرب. وبتخاذل الإنجليز والفرنسيين، استطاع هتلر أن يصل إلى العاصمة التشيكية براغ في ١٠ مارس ١٩٣٩ . وببلوغ السيل الألماني الزبى، قرر الإنجليز والفرنسيون تسجيل موقف بعدم التنازل عن الأراضي التي مُنحت لبولندا بموجب معاهدة فيرساي، ولكن القوى الغربية فشلت في التحالف مع الاتحاد السوفييتي واختطف هتلر الخلاف الغربي السوفييتي وأبرم معاهدة "عدم اعتداء" بين ألمانيا والاتحاد السوفييتي مع ستالين في ٢٣ أغسطس ١٩٣٩ وفي ١ سبتمبر ١٩٣٩. غزا هتلر بولندا، ولم يجد الإنجليز والفرنسيين بدّاً من إعلان الحرب على ألمانيا.

- جماهير الشعب الألماني تحيي هتلر -

الانتصارات الخاطفة:

في السنوات الثلاث اللاحقة للغزو البولندي وتقاسم بولندا مع الاتحاد السوفييتي، كانت الآلة العسكرية الألمانية لا تقهر. ففي أبريل ١٩٤٠، غزت ألمانيا الدنمارك والنرويج، وفي مايو من نفس العام هاجم الألمان كلاً من هولندا، بلجيكا، لوكسمبورغ، وفرنسا، وانهارت الأخيرة في غضون ٦ أسابيع. وفي أبريل ١٩٤١، غزا الألمان يوغسلافيا واليونان، وفي نفس الوقت كانت القوات الألمانية في طريقها إلى شمال إفريقيا وتحديداً مصر. وفي تحوّل مفاجئ، اتجهت القوات الألمانية صوب الغرب وغزت روسيا في نقض صريح لاتفاقية عدم الاعتداء، واحتلت ثلث الأراضي الروسية من القارة الأوروبية، وبدأت تشكّل تهديداً قوياً للعاصمة الروسية موسكو. وبتدنّي درجات الحرارة في فصل الشتاء، توقفت القوات الألمانية عن القيام بعمليات عسكرية في الأراضي الروسية ومعاودة العمليات العسكرية في فصل الصيف في موقعة "ستالينغراد" التي كانت أول هزيمة يتكبدها الألمان في الحرب العالمية الثانية. وعلى صعيد شمال إفريقيا، هزم الإنجليز القوات الألمانية في معركة العلمين، وحالت دون سيطرة قوات هتلر على قناة السويس والشرق الأوسط ككل.

- هتلر يستعرض قواته -

إسدال الستار:

الانتصارات الخاطفة التي حصدها هتلر في بداية الحرب العالمية الثانية وبالتحديد، الفترة الممتدة من ١٩٣٩ إلى ١٩٤٢، جعلت منه رجل الاستراتيجية الأوحد في ألمانيا وأصابته بداء الغرور والامتناع عن الإنصات إلى آراء الآخرين أو حتى تقبّل الأخبار السّيئة وإن كانت صحيحة. فخسارة ألمانيا في معركة ستالينغراد والعلمين وتردّي الأوضاع الاقتصادية الألمانية وإعلانه الحرب على الولايات المتحدة في ١١ ديسمبر ١٩٤١ وضعت النقاط على الحروف ولم تترك مجالاً للشك في بداية النهاية لألمانيا هتلر. فمجابهة أعظم إمبراطورية (الإمبراطورية البريطانية) وأكبر أمّة (الاتحاد السوفييتي) وأضخم آلة صناعية واقتصادية (الولايات المتحدة) لاشك تأتي من قرار فردي لا يعبأ بلغة العقل والخرائط السياسية.

في ١٩٤٣، تمت الإطاحة بحليف هتلر الأوروبي (موسوليني) واشتدت شراسة الروس في تحرير أراضيهم المغتصبة، وراهن هتلر على بقاء أوروبا الغربية في قبضته، ولم يعبأ بالتقدم الروسي الشرقي، وفي ٦ يونيو ١٩٤٤ تمكن الحلفاء من الوصول إلى الشواطئ الشمالية الفرنسية، وبحلول ديسمبر تمكن الحلفاء من الوصول إلى نهر الراين وإخلاء الأراضي الروسية من آخر جندي ألماني.

عسكرياً، سقط الرايخ الثالث نتيجة الانتصارات الغربية، ولكن عناد هتلر أطال من أمد الحرب لرغبته في خوضها لآخر جندي ألماني. وفي نزاعه الأخير، رفض هتلر لغة العقل وإصرار معاونيه على الفرار إلى بافاريا أو النمسا، وأصر على الموت في العاصمة برلين وفي ١٩ مارس ١٩٤٥، أمر هتلر أن تدمّر المصانع والمنشآت العسكرية وخطوط المواصلات والاتصالات وتعيين هينريك هيملر مستشاراً لألمانيا في وصيته. وبقدوم القوات الروسية على بوابة برلين، أقدم هتلر على الانتحار، وانتحرت معه عشيقته إيفا براون في ١ مايو ١٩٤٥ وأسدل الستار على كابوس الحرب العالمية الثانية.

- إيفا براون كما رسمها هتلر -

وفي عام ١٩٧٨ اختاره د. مايكل هارت الشخصية الخامسة والثلاثين من بين أكثر الشخصيات تأثيراً في التاريخ والبشرية.

واليوم وبعد أكثر من ستين عاماً على رحيل هتلر، لا يزال الجدل حول تاريخه ومدى دكتاتوريته ووحشيته مستمراً، ولا تكاد تمر ذكرى رحيله حتى يخرج للحياة كتاب أو بحث أو دراسة عن تاريخه الغامض.

ومن خلال الاستقراء التاريخي المؤكد تتضح لنا مفارقة غاية في الغرابة، وهي مسألة "الضحايا"! فما من أحد -تقريباً- إلاّ ويتبادر إلى ذهنه هتلر حال سماعه الأعداد الفلكية لضحايا الحروب، ولا يتبادر إليه اسم "ستالين" مثلاً، رغم أن الأخير يفوق هتلراً بعدد ضحايه بعدة أضعاف (وقد أوصل عدد من المؤرخين ضحايا ستالين إلى أكثر من ٥٠ مليون إنسان، أي ما يقارب عدد ضحايا الحرب العالمية الثانية مجتمعين)، رغم أنهما عاشا في عصر واحد وخاضا حرباً واحدة!

وهنا يبرز تساؤل، وهو لماذا لم نسمع عن ستالين كمجرم بينما يتبادر إلى أذهاننا اسم هتلر حال سماعنا لألفاظ الإجرام والوحشية؟ أعتقد أن الإجابة تكمن في أن الإعلام الغربي -المسيطر- ضلل لمدة طويلة الحقائق التي تثبت تورط ستالين بجرائم ومذابح شنيعة لا توصف، وذلك بسبب فضله العظيم على أوروبا وأميركا بتحالفه معهم ضد الألمان ودوره الفعال في القضاء على هتلر، الذي ألبسه الإعلام الغربي -منذ الحرب العالمية الثانية وحتى اليوم- كل قطرة دم سالت في الحرب.

كلامي هذا ليس دفاعاً عن هتلر ولكنه رغبة مني في أن نفهم أن المنتصر هو من يكتب التاريخ، وأنه إذا أردنا أن نعرف التاريخ على حقيقته علينا أن نعرف المؤرخين على حقائقهم.